# وإنك لعلى خلق عظيم

## الخطبة الخامسة والعشرون

## غزوة الخندق

ما زلنا مع سيرة المصطفى ﷺ، ما زلنا مع هذه الصفحات العطرة وهذه السيرة النضرة، ما زلنا مع هذا النور الوهاج، الذي أفضى إلى ظلمات البشرية فانجابت كما ينجاب الغمام، ما زلنا مع هذا الهدى الذي أرسله الله للإنسانية فانتشلها من ضيعة وهلاك، ما زلنا عباد الله مع نفحات العطر وومضات الإشراق من سيرة عظيم الأخلاق سيدنا محمد ﷺ.

وقد تكلمنا وبدأنا الحديث عن غزوات النبي ﷺ، فتكلمنا عن غزوة بدر وغزوة أحد، واليوم نتكلم عن غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب.

فها نحن في السيرة النبوية في السنة الخامسة من الهجرة، وقد أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كل طائفة منفردة، وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة، وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فذهب نفر من قادة اليهود إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ، وقالوا بأنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

وترك زعماء اليهود قريشًا إلى عرب غطفان وعقدوا معهم حلفًا مشابهًا لما تم مع أهل مكة، ودخل هذا الحلف عدد من القبائل الناقمة على الدين الجديد.

وبذلك نجح ساسة اليهود على تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته.

منهم يحارب عقيدة كاليهود وقريش، ومنهم يحارب من أجل المال كقبائل غطفان.

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف ووافتهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان، وكانت هؤلاء الأحزاب الكافرة عشرة آلاف مقاتل.

فاستشار الرسول ﷺ الصحابة الكرام ﷺ، فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق في الجهة الشمالية، وكانت خطة فريدة لم تسمع العرب قبل ذلك بمثلها.

وطبيعة المدينة أنها محصنة في هذا الوقت شرقا وغربا وجنوبا أما في الناحية الشمالية فتوجد حرتان، فحفروا الخندق حتى لا يستطيع المشركون الدخول من الناحية الشمالية.

والأمر لم يكن سهلا، فإنهم لا يملكون إلا الفؤوس، والخندق الذي سيحفرونه يبلغ ما يقرب من خمسة ونصف كيلو مترا، وعرضه ما يقرب من خمسة أمتار، وعمقه ثلاثة أمتار.

وشرعوا في حفر هذا الخندق وكان النبى ﷺ يشاركهم في ذلك وكانوا في غاية الجهد، والجوع، والبرد.

وعن أنس ﷺ قال: «**خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَ:**

**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ ... فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ**

**فَقَالُوا: مُجِيبِينَ لَهُ:**

**نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا**»[1].

يقول البراء بن عازب ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ، أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً**

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٠٩٩).

**عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، إِنَّ الْأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»**[1].

وأثناء حفرهم عرض لهم صخرة تكسر فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء فأخذ المعول، فقال **«بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»**[2].

إنه رفع المعنويات لهؤلاء الأبطال الذين كانوا في أشد ساعات الحرج والضيق.

لقد كان الفصل شتاءً، والجو باردًا، ولا طعام، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس، لذلك اجتهد النبي ﷺ في تدعيم القوى المعنوية لرجاله.

ويحكي جابر رضي الله عنه لما رأى رسول الله ﷺ وبطنه معصوب بحجر من شدة الجوع: **«وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، .....، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحَتِ العَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ، قَالَ: كَمْ هُوَ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قَالَ: قُلْ لَهَا: لاَ تَنْزِعِ البُرْمَةَ، وَلاَ الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ، فَقَالَ: قُومُوا، فَقَامَ المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: ادْخُلُوا وَلاَ**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٠٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٨٠٣).

[2] رواه أحمد رحمه الله في مسنده (١٨٦٩٤)، وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله في فتح الباري بلفظ قريب: إسناده حسن (٤٥٨/٧).

تَضَاغَطُوا، فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»[1].

أتدرون لمن قال رسول الله ﷺ قوموا؟ قال للمهاجرين والأنصار، أي: الجيش كله.

ولما أقبل الأحزاب من كل مكان وضيقوا عليهم الخناق؛ لم تطر نفوس المسلمين شعاعًا بل جابهوا الحاضر المر وثبتهم الله، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٢]،

أما المنافقون والواهنون يقول عنهم ربهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[الأحزاب: ١٢]، فقد كانوا في حالة قال عنها الله ﷻ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب: ١٠].

والمؤمنون يعلمون أن هذه الغزوة هي الغزوة الفاصلة، إما أن يستأصل الإسلام، وإما أن يدخل الناس في دين الله أفواجا.

وفي هذا الوقت أسلم رجل يسمى: **نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيُّ**، وهذا الرجل كان معروفا لدى اليهود وقريش، وقبيلته غطفان، وكان من الذين يسعون في الأرض فسادا، وجاء إلى النبي ﷺ وعرض عليه المساعدة، فقال له: «**يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي، فَمُرْنِي أَمْرَكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّمَا الْحَرْبُ خَدْعَةٌ، فَانْطَلَقَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِنِّي**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١٠١)؛ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (٣٩٧/٧): « وَعَنَاقٌ: هِيَ الْأُنْثَى مِنَ الْمَعْزِ، والأَثَافِيِّ: الحِجارَةِ الَّتِي تُوضَعُ عَلَيها القِدرُ، وطُعَيِّمٌ: عَلَى طَرِيقَةِ الْمُبالَغَةِ فِي تَحقِيرِهِ (أي تحقير الطعام لقلته)، قالُوا: مِن تَمامِ المَعرُوفِ تَعجِيلُهُ وتَحقِيرُهُ، وَلاَ تَضَاغَطُوا: لا تَزدَحِمُوا»، وقال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (٤٥/١٢): «البُرْمة: القِدْرُ مُطْلَقًا».

لَكُمْ نَدِيمٌ وَصَدِيقٌ، قَدْ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: صَدَقْتَ، فَقَالَ: تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ، وَقُرَيْشٌ، وَغَطَفَانُ مِنْ مُحَمَّدٍ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ الْبَلَدَ لَبَلَدُكُمْ، وَبِهِ أَمْوَالُكُمْ، وَأَبْنَاؤُكُمْ، وَنِسَاؤُكُمْ، وَإِنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ بِلادُهُمْ غَيْرُهَا، وَإِنَّمَا جَاءُوا حَتَّى نَزَلُوا مَعَكُمْ، فَإِنْ رَأَوْا فُرْصَةً؛ انْتَهَزُوهَا، وَإِنْ رَأَوْا غَيْرَ ذَلِكَ؛ رَجَعُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَنِسَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الرَّجُلِ، فَلا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ، وَإِنْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ فَلا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، تَسْتَوْثِقُونَ بِهِ مِنْهُمْ أَنْ لا يَبْرَحُوا حَتَّى يُنَاجِزُوا مُحَمَّدًا، فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَشَرْتَ بِرَأْيٍ وَنُصْحٍ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَأَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَأَشْرَافَ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدِّي إِيَّاكُمْ، وَفِرَاقِي مُحَمَّدًا وَدِينَهُ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِنَصِيحَةٍ، فَاكْتُمُوا عَلَيَّ، فَقَالُوا: نَفْعَلُ، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتَّهَمٍ، فَقَالَ: تَعْلَمُونَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ مِنْ يَهُودَ، قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ: أَلا يُرْضِيكَ عَنَّا أَنْ نَأْخُذَ لَكَ مِنَ الْقَوْمِ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ، وَنَدْفَعَهُمْ إِلَيْكَ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، ثُمَّ نَكُونَ مَعَكَ عَلَيْهِمْ، حَتَّى تُخْرِجَهُمْ مِنْ بِلادِكَ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَإِنْ بَعَثُوا إِلَيْكُمْ يَسْأَلُونَكُمْ نَفَرًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلا تُعْطُوهُمْ رَجُلا وَاحِدًا وَاحْذَرُوا، ثُمَّ جَاءَ غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَجُلٌ مِنْكُمْ، قَالُوا: صَدَقْتَ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو سُفْيَانَ، وَذَلِكَ يَوْمُ السَّبْتِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ، وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ بِهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ، يَقُولُ لَكُمْ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، إِنَّ الْكُرَاعَ وَالْخُفَّ قَدْ هَلَكَا، وَإِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، فَاخْرُجُوا إِلَى مُحَمَّدٍ نُنَاجِزْهُ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ: إِنَّ الْيَوْمَ السَّبْتُ، وَهُوَ يَوْمٌ لا نَعْمَلُ فِيهِ شَيْئًا، وَلَسْنَا مَعَ ذَلِكَ بِالَّذِينَ نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ نَسْتَوْثِقُ بِهِمْ لا تَذْهَبُوا وَتَدَعُونَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَدْ وَاللَّهِ حَذَّرَنَا هَذَا نُعَيْمٌ،

**فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّا لا نُعْطِيكُمْ رَجُلا وَاحِدًا، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا؛ فَتُقَاتِلُونَ، وَإِنْ شِئْتُمْ؛ فَاقْعُدُوا، فَقَالَتْ يَهُودُ: هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي قَالَ نُعَيْمٌ، وَاللَّهِ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ أَلا يُقَاتِلُوا مَعَهُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فُرْصَةً؛ انْتَهَزُوهَا، وَإِلا؛ مَضَوْا فَذَهَبُوا إِلَى بِلادِهِمْ، وَخَلَّوْا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّجُلِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ: إِنَّا وَاللَّهِ لا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تُعْطُونَا رَهْنًا، فَأَبَى أَنْ يَفْعَلَ، فَبَعَثَ اللَّهُ الرِّيحَ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، وَغَطَفَانَ وَجُنُودِهِ الَّتِي بَعَثَ، فَخَذَلَهُمُ اللَّهُ"»**[1].

وبعد أن صار الحصار أكثر من عشرين ليلة، وجاء المسلمون إلى رسول الله ﷺ يسألونه: **«يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ؟ فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، قَالَ: نَعَمْ، اللهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا»**[2]، ثم دعا ﷺ: **«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمْ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ»**[3].

فها هو الجو غُبِّرَت أرجاؤه وترادفت أنواؤه، وهبت الرياح نكباء موحشة الصفير، تكاد في هبوبها تطوي الخيام المبعثرة وتطير بها في الآفاق، وأصبح زئير الريح سوطًا يلهب المهاجمين، فلم تترك قدرًا، ولا نارًا، ولا بناءً إلا وأتت عليه، فقال أبو سفيان يا معشر قريش: **"إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبحْتُمْ بدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَأَخْلَفَتْنَا بنُو قُرَيْظَةَ، بلَغَنَا مِنْهُمْ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللَّهِ مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ"**[4].

وطلع النهار فإذا ظاهر المدينة خلاء، ارتحلت الأحزاب، وانفك الحصار، وعاد الأمن، ونجح الإيمان فى المحنة.

---

[1] دلائل النبوة للبيهقي رحمه الله (٤٤٦/٣)، راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣٧٧٧)، للشيخ الألباني رحمه الله.

[2] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (١٠٩٩٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٣٠٤).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١١٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٤٢).

[4] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (٢٣٣٣٤)، وقال الألباني رحمه الله في فقه السيرة بلفظ قريب (٣٠٨): هذه القصة صحيحة وسياقها هنا مركب من ثلاث روايات، وقال العظيم آبادي رحمه الله في عون المعبود (٢٧/٤): «الْكُرَاع بِضَمٍّ الْكَاف: جَمَاعَة الْخَيْل».

وهتف رسول الله ﷺ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ**»[1].

أيها الاخوة المسلمون عباد الله مهما تكلمت عن فوائد هذه الغزوة؛ فلا أستطيع أن أحصرها.

**الفائدة الأولى: الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله:**

لقد رأينا الرسول ﷺ يدعو، ويدعو الصحب، فينتصرون بالدعاء.

**قد يقول قائل: ولم نحن ندعو كثيرًا ولا يستجاب لنا؟**

**هل لأن الرسول ﷺ ليس معنا وليس معنا من صالحين؟**

قد يخطر هذا على قلب أحدنا.

**نقول والله المستعان،** ليس الأمر كذلك، فلو أن الصالحين من زمن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ما استجيب لهم إذا اكتفوا بالدعاء، وما كانوا بالصالحين لو اكتفوا بالدعاء كما نكتفى.

إنها السنة الكونية التي طالما كررناها في هذه الخطب نظرا لتكرار المواقف.

لن يكفي الدعاء، ولا يقبل الله الدعاء من متواكل كسول، وما يستمع لشيء استماعه لهتاف مجتهدٍ أن يبارك له سعيه أو دعاء صابر أن يجمّل له العاقبة.

فها هم دعوا الله عز وجل وقد أفرغوا جهدهم في الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق في طوق البشر مدخر، فبقي أن تتدخل العناية العليا لتقمع صعر الظالم وتقيم جانب المظلوم.

أما أن ندعو بدون الأخذ بالأسباب التي هي متاحة، فهذا إن ظننا إنه سوف يغني من جوع؛ فهذا يرجع إلى بعدنا عن العلم الإلهي والسنة الكونية.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤١١٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٧٢٤).

وسبحان الله عباد الله، نحن نكيل بمكيالين حتى وجدنا أنفسنا قد ابتعدنا عن الحق.

هل رأيتم مرة جاء نقيب المهندسين فوقف والمهندسون خلفه يدعون أن تبنى المنطقة السكنية أو الكوبري؟ لو فعلوا ذلك؛ لضحك الناس عليهم.

وما وجدنا مرة أن رجلًا غارقًا في دمائه على إثر حادث ثم قام أطباء المستشفى بالدعاء له بالشفاء و لم يقتربوا منه، لو فعلوا؛ لقدموا للمحاكمة.

يا ليتنا نجد أي أحد من أي مهنة يفعل ما يفعله من يريد أن يهزم عدوه.

لا بد من السنة الكونية التي قدرها الله من لدن آدم إلى يوم القيامة.

والسنة الكونية تقول: يا عباد الله، خذوا بما تيسر لكم من الأسباب يقف الله بجواركم.

ولهذا والمسلمون جوعى فأخذوا بالأسباب فبارك الله في القليل فأكلوا وشبعوا.

السنة الكونية تقول أن ١٠ آلاف مقاتل بعدد وعتاد قد أغاروا على قوم قليلين جوعى عراة مجهدين فى برد سحيق لا بد أن يأكلوهم، لو قاموا بالدعاء فقط.

ولكنهم وقفوا بأسلحتهم الميسرة لهم وحفروا خندقًا بما تيسر لهم، ثم بعد ذلك لما استفرغوا جهدهم دعوا ربهم.

ولا مانع أن يدعوا ربهم فى جميع مراحل الاستعداد، ولا بد أن يكون هؤلاء المؤمنون قد نصروا ربهم أولًا.

**إذن فلنقعد قاعدة أرساها الله وسوف نجدها في كل العصور:**

في عهد آدم، موسى، عيسى، نوح، يونس عليهم السلام، في عهد رسول الله ﷺ، في عهد الصحابة رضي الله عنهم، في عهد التابعين رحمهم الله، في الدولة الأموية، العباسية، العثمانية، في الأندلس، في أي مكان، في وقتنا الحاضر، الماضي، المستقبل تنحصر في آيتين:

- ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

**الفائدة الثانية: طاعة الرسول ﷺ تجلب البركة:**

يقول تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[النور: ٥٤].

فها هو جابر رضي الله عنه لما استجاب لأمر النبي ﷺ جعل الله البركة في الطعام، وها هو حذيفة يقص علينا: «**لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** (لا تحركهم علي)، **فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، قَالَ: قُمْ يَا نَوْمَانُ"**[1].

وكذلك من امتثل أمر الرسول ﷺ، فانظر لمن يواظب على صلاة الفجر وخصوصًا في الليالي الشاتية والنوم العميق، فإن قام أول ليلة؛ ليجد مجهودًا، وتعبًا، وكسلًا ما يعلمه إلا الله، ثم لم يلبث إن كرر ذلك أن يكون هذا العمل أحب إليه من كنوز الدنيا، ما الذي حدث؟ فالقيام هو هو، والجو بارد أو أشد برودة، ولكنه الحب الذي قذفه الله في قلبه، فجعل البرد دفئًا، والنوم انتباهًا، والظلام نورًا، والصلاة جمالًا، إنها طاعة الرسول ﷺ.

[1] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٨٨).

ثم انظر إلى هذا الذى يصوم في يوم حار، وهو سعيد، والحر مؤثر فيه، ولكنه سعيد والعطش أخذ منه كل مأخذ، ولكنه سعيد، ما سر هذه السعادة؟ إن السر هو طاعة الرسول ﷺ، وكذلك الحجاب، وكذلك كل ما أمر الله به.

**الفائدة الثالثة: في ساعة الشدة لا بد وأن يقوم المصلحون ليثبتوا الناس**

والمصلحون ليسوا هم الدعاة فقط، بل أي مصلح في كل مكان وفي كل مجال، فلا بد أن يقوم في وقت الشدائد ليثبت الناس؛ لأن الناس في وقت الشدائد تنقسم إلى قسمين: قسم يذوب مع الشدائد وتراه كالغثاء مع تيارات المياه، وقسم يقوى عند الشدائد، وتنكسر الشدائد على متنه، ويهجم على الشدائد قبل أن تهجم عليه.

فكان النبي ﷺ في وقت الشدائد يرفع معنويات الناس، في وقت الشدائد كان ﷺ يحفر مع الناس، وكان ﷺ يفعل ما يثبت به الناس.